

اجتهادات كيف بدأ التفاوت الاجتماعى؟

تشغل قضية التفاوت الاجتماعى ومظالمه أعدادًا من العلماء والباحثين الآن أكبر من أى وقت مضى. ينصب هذا الاهتمام على قياس معدلات ازدياد التفاوت، وتحليل أبعاده، وكيفية التعامل معه. ووجه جزء من هذا الاهتمام فى الفترة الأخيرة إلى البحث فى كيفية بدء التفاوت تاريخيًا. وبخلاف الاتفاق الواسع على أن التفاوت لم يكن معروفًا فى مرحلة هى الأطول فى تاريخ الإنسان، يوجد خلاف على اللحظة التاريخية التى بدأ فيها التفاوت فى صورته الأولى. ويمكن اختزال اتجاهات البحث فى هذه المسألة فى اتجاهين رئيسيين، ينطلق أولهما من أن التفاوت بدأ مع إرهابات الملكية الخاصة التى اقتصرت على الأرض فى بدايتها. وانطلقت إسهامات فكرية عدة من هذا الافتراض، وبنت عليه. وفى مقدمتها إسهام كارل ماركس، الذى أطلق عليه المادية التاريخية، وهو أن الأرض كانت مشاعًا إلى أن ظهرت الملكية الخاصة، فبدأت مرحلة العبودية ثم الإقطاع وصولاً إلى الرأسمالية التى تطلع لتجاوزها باتجاه الاشتراكية فالشيوعية. وبرغم أن اللحظة التى بدأ فيها التفاوت ليست محددة بدقة فى إسهامات هذا الاتجاه، يمكن استنتاج أنها ارتبطت بأول تجمعات بشرية صغيرة، أى قبل بضع مئات آلاف من السنين. أما الاتجاه الثانى فيسعى إلى ربط بداية التفاوت الاجتماعى باهتداء البشر إلى زراعة الأرض قبل نحو 12 ألف عام، أى بعد فترة طويلة من تكوين المجتمعات البشرية الأولى. وحاول جان بول دومول مثلاً تبيان أن البشر لم يعانون طول تلك الفترة الطويلة من التفاوت والتسلط واحتكار موارد الثروة، قبل أن يعرفوا الزراعة التى

بدأت معها الفروق بينهم. والحلقة المفقودة بين الاتجاهين هي الوقت الذي بدأ فيه بعض البشر الأقوياء والأكثر دهاءً في بسط سيطرتهم على مساحات من الأراضي. وإذا كان هذا حدث قبل الزراعة فكم من الزمن يفصل بينهما، وهل بدأت الملكية مع تكون أول تجمعات بشرية، أم بعد ذلك، وفيما كانت الأرض التي امتلكت تُستخدم قبل الزراعة؟ وعندما نجد إجابةً عن هذه الأسئلة سيكون ممكناً حل خلافات فكرية قديمة جديدة حول الطبيعة البشرية وما يتصل بها من قضايا.